إيبارشيَّة لوس أنجلوس بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة

المحاضرة الثَّامنة

شعب كنيسة العذراء والقدِّيس أثناسيوس في نورثريدج Northridge

صباح الأحد ٢٠١٤/٣/١٦م

قُدَّاس أحد الابن الضَّال
من الصَّوم المقدَّس الكبير

أحدُ الابن الضَّال هو يوم العودة إلى الله ٢

ماذا فعلت الخطيئة بنا؟ ٢

معنى التَّوبة في المسيحيَّة ٣

التَّوبة وارتباطها بالمعموديَّة ٣

التَّوبة هي تجديد المعموديَّة ٤

الرَّاهب أثناسيوس المقاري

أحدُ الابن الضَّال هو يوم العودة إلى الله

• يقع أحدُ الابن الضَّال وهو الأحد الثَّالث من الصَّوم الكبير بحسب الطَّقس القبطي الحالي، موقع القلب من هذا الصَّوم، كصوم ستَّة أسابيع قبل أن يسبقها أسبوع، ويلحقها أسبوع آخر. وهذا الفَصل من الإنجيل المقدَّس، تعرفه الكنيسة الأرمينيَّة والكنيسة المارونيَّة، والكنيسة اليونانيَّة.

• هو أحدُ العودة إلى الله، والتَّوبة إليه. وهي غاية الصَّوم المقدَّس الكبير في الكنيسة. وتكفي من الإنسان الخطوة الأولى، لكي يكمل الله باقي الخطوات نحو الإنسان. فالله هو الذي سعى إلينا، وليس نحن الذين سعينا إليه. «ليس نحن أحببنا الله، بل هو أحبنا وبذل نفسه لأجلنا». «وإذ نحن بعد خطاة، مات المسيح لأجلنا». فمجرد أن يشعر الإنسان بخطيئة التي فصلته عن الله، ينفتح أمامه طريق الرُّجوع إليه.

• المسيح هو ملجأ التَّائبين والخاطئين والضُّعفاء. فاليوم هو يوم رجوعهم إلى أحضان المسيح. وليس اليَوم هو يوم الأبرار عند ذواتهم، لأنَّ المسيح جاء إلينا على الأرض من أجل الخطأة الذين أولهم أنا.

• ليس مطلوباً من الإنسان سوى أن يلقي أتعابه وخطاياه وضعفاته على المسيح حامل خطايا العالم كله، ليخرج من عنده مبرراً مغسولاً بدمه الحاضر كل حين على المذبح، مذبح غفران الخطايا.

• وضعت الكنيسة زمان التَّوبة في داخل الصَّوم. لأنه كما يقول القدِّيس باسيليوس الكبير[١]:
[التَّوبة بدون صَوم لا تأتي بثمر ... لقد طردنا من الفردوس لأننا لم نصم. فلنصم إذاً حتى نعود إليه].

ويقول القدِّيس باسيليوس الكبير أيضاً:
[الصَّوم حارسٌ للنَّفس، ورفيقٌ أمينٌ للجسد. الصَّوم سلاح الشُّجعان، ومدرِّب النُساك. الصَّوم يصدَّ التَّجارب، ويُمهد الطريق للتَّقوى. إنه رفيقُ الهدوء وصانع العفَّة ... الصَّوم يصنع الأقوياء، ويجعل المشرّعين حُكماء][٢].

• وإذا لم تعُد من ذاتك وكنت ابن خلاص، سيضيق الله عليك ويحاصرك من كل جهة، لأنه يريدك أن تعود إليه. لذلك نُصلِّي كل حين قائلين: «لا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير».

• الذي يستعبد نفسه للخطيئة، يصير عبداً لها. ولكن الله دعانا في الحريَّة، حريَّة البنين، حريَّة أولاد الله. «لا أعود أسميكم عبيداً بل أحباء، لأني أعلمتكم بكلِّ شيء».

• هل تريد أن تفرح قلب المسيح الذي أحزنته مراراً؟ قُل الآن: ''أقوم وأرجع إلى أبي''. إن أردتَ أن تشهد لآلام المسيح التي تألمها من أجلك، عُد إليه اليَوم، وليس غداً. فهو واقف يقرع على باب قلبك، فهل تفتح له؟ اليَوم بالذَّات هو فرصتك لكي تفرِّح قلب المسيح وأمه العذراء مريم والملائكة والشُّهداء والقدِّيسين، وكل السَّمائيِّين. «السَّماء تفرح بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى التَّوبة».

ماذا فعلت الخطيئة بنا؟

• الابن الضَّال في انعزاله عن أبيه، هو صورة دقيقة لحال الإنسان الأول عندما انفصل عن الله وطُرد من أمامه. وفقد الفردوس الذي كان يتنعَّم فيه بمعية الرَّب كلَّ حين. فملك عليه الموت. هكذا تفعل الخطيئة بالإنسان. «ابني هذا كان ميتاً».

---

١ – للقدِّيس باسيليوس الكبير عظتان عن الصَّوم، ألقاهما في غضون سنة ٣٧٠م. ويوضح فيهما الصَّوم خمسة أيام في الأسبوع، على اعتبار أن السَّبت والأحد لا يصامان انقطاعياً.

2- *PG*. 31, 164A-197C

أنا الميت يارب بالخطايا فأحيني. أنا الضال في ضروب العالم، فاهدني.

• لقد شرح البابا أثناسيوس الرَّسولي في كتابه ''تجسد الكلمة'' ماذا فعلت الخطيئة في الإنسان، عندما سقط من حضرة الله في الفردوس، وأُغوي بأسباب تُشبه الحق، وليست هي الحق. فانشغل بأمور الجسد وحواسه، ورفض التَّأمُّل في الله وفي الأمور الأبديَّة، وتهاون في حفظ وصيَّة الله، ثمَّ خالف الوصيَّة. فماذا كانت النتيجة؟

- التَّردي في شهوات الجسد.
- الخجل من العُري، ليس عُري الثِّياب فحسب، بل عُري التَّأمُّل في الأمور الإلهيَّة.
- الرَّغبة الجامحة في معرفة كلِّ شيء بلا استثناء أو تحفُّظ، حتى أصبحت الملذَّات هي خُلاصة الخير.
- اختراع أنواع من الشَّر، والتفنُّن فيه.
- خضوع النَّفس للجُبن والخوف من الموت، أي انفصال النَّفس عن الجسد.
- ارتكاب القتل والمظالم، ونشأة الحروب والمنازعات.
- أصبحت طبيعة البشر مشبَّعة بالخطيئة.
- سيادة الموت على البشر كملك، واستحقاق حُكم الموت، بسبب تعدي الوصيَّة.
- العودة إلى عدم الوجود بالفساد الذي يؤدي إلى العدم مع توالي الزَّمن.
- صار للفساد سُلطان نهائي على كلِّ جنس البشر. «أنت تُراب وإلى التُّراب تعود».

• من أجل هذا، تُصلي الكنيسة كل يوم من أجلنا قائلاً: ''لا يقوى علينا نحن عبيدك موت الخطيئة، ولا على كل شعبك''. فيجيب الشَّعب: ''يارب ارحم''.

• ولأنَّ الخطيئة فعلت فينا كلَّ هذا، فقد جاء المسيح إلينا على الأرض، ومات من أجلنا، لكي يمنحنا الحياة. فلم يكن ممكناً للمسيح أن يهبنا حياته إلاَّ من خلال موته. فبدون المسيح ليست لنا حياة حقيقيَّة، كما يقول القدِّيس إغناطيوس الشَّهيد. ولكي تكون لنا حياة المسيح فينا، وُلدنا في المعموديَّة أبناء لله، ولبسنا المسيح، وصرنا شركاء في جسده وأعضاء فيه. ولكن مع مرور السنين، أبعدتنا الخطيئة عن محبتنا الأولى، وتركنا بيت أبينا السَّماوي، ولوثنا ثوب معموديتنا الأبيض، فماذا نفعل. الكنيسة اليَوم تجيب على سؤالك بنفس ما قاله الابن الضال الذي أراد العودة إلى أبيه. «أقوم وأذهب إلى أبي وأقول له أخطأت إلى السَّماء وقدَّامك». هذه هي التَّوبة، أي الرُّجوع عن طريق العالم وشهواته.

معنى التَّوبة في المسيحيَّة

• التَّوبة في اليونانيَّة μετάνοια والفعل منها μετανοέω تعني تغيير العقل والقلب، وتحويلهما من الأهواء والشَّهوات إلى الله. ويشير آباء الكنيسة في كتاباتهم إلى العقل بلفظة ''القلب – νους''. فمفهوم ''القلب''، أو ''العقل الأعلى'' في التَّعليم الآبائي، يعبِّر عن قوَّة من قوى النَّفس، وعن أسمى ما فيها، لأنَّ العقل الأعلى صورة الله في الإنسان. ومن أجل ذلك، فالتوبة في المسيحيَّة، هي تجديد فعل المعموديَّة فينا. فمن لا معموديَّة له، لا توبة له. فالمعموديَّة كأساس متين للبناء، تضمن لنا التَّوبة. وحياة التَّوبة هي النُّمو والبناء على هذا الأساس، أي النُّمو في معرفة ربِّنا يسوع المسيح، وقوَّة قيامته، وشركة آلامه.

التَّوبة وارتباطها بالمعموديَّة

• إنَّ حياة التَّوبة في الكنيسة المسيحيَّة لا يمكن فصلها عن المعموديَّة والإفخارستيَّا والإنجيل. وهذا هو الفارق الشَّاسع بل والوحيد بين مفهوم التَّوبة في المسيحيَّة، ومفهومها في غيرها من الدِّيانات الكثيرة الأُخرى.

أنت ولدت في المعموديَّة ابناً لله، فلا يهم أنك ابتعدت وشردت، بل المهم أن تعود حتى ولو كنت قد بددت كل النعم التي أخذتها في الكنيسة. لا يهم، عد فقط إليه ولو عارياً معوزاً، وهو سيكسيك بثوب بره وغناه.

لَّما عاد الابن إلى أبيه، أمر للحال بأن يخرجوا الحُلَّة الأولى ويلبسوه. وهذه الحلة الأولى هي ثوب المعموديَّة الأبيض.

فرحلتنا إلى الملكوت بدأت منذ يوم معموديتنا، عندما لبسنا الثَّوب الأبيض، ووُضع على رأسنا إكليل الغلبة، وحملنا في أيدينا مشاعل بني النُّور. فلو سلَّمت النَّفس في نهاية حياتها ثوبها أبيضاً، وإكليلها على رأسها غير مسلوب منها، ومصباحها موقداً مضيئاً كما استلمته يوم معموديَّتها، استحقَّت الملكوت.

ولكن في حروبنا مع العالم والجسد والشيطان، نحن معرضون لأنَّ يتسخ ثوبُنا الأبيض، أو أن يُنزع عنَّا تاجُ رأسنا، فها التَّوبة، تستطيع وحدها أن تعيد إلينا ثوباً أبيضاً كما لبسناه يوم معموديتنا، وتعيد إلينا تاج رأسنا الذي سُلب منَّا. فانظروا قوَّة فعل التَّوبة في المسيحيَّة، لأنَّ التَّوبة أي الرُّجوع إلى المسيح، مدفوع ثمنها مقدماً، أي دم المسيح. كل من يحتمي بالمسيح يغتسل بدمه. كل من يلتجئ إلى المسيح، يتبرر بحياته.

وطوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشي عرياناً[٣]. يقول الرُّوح: «من يغلب، فذلك سيلبس ثياباً بيضاً، ولن أمحو اسمه من سفر الحياة. وسأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته» (رؤيا ٣:٥).

يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أُسقُف ميلان:

[حسنة هي التَّوبة، فإن لم يكن لها مكان في قلبك، فستخسر نعمة الغسل التي نلتها في المعموديَّة منذ أمد بعيد. فإنه من الأفضل أن يكون لنا ثوبٌ نُصلحه، عن أن لا يكون لنا ثوبٌ نرتديه. ولكن إذ أُعدَّ لنا الثَّوب مرَّة، فيجب أن يتجدَّد].

وهذا هو نداء الإنجيل لكلٍّ من يتمسَّك بإكليله الذي ناله في المعموديَّة، محفوظاً على رأسه: «اركضوا لكي تنالوا، وكلُّ من يجاهد يضبط نفسه في كلِّ شيء. أمَّا أولئك، فلكي يأخذوا إكليلاً يفنى، وأما نحن، فإكليلاً لا يفنى» (١كورنثوس ٩:٢٥).

هذا هو إكليل البر الذي يُعطي للذين يحبُّون ظهور الرَّب الدَّيان العادل في مجيئه الثَّاني، كوعده الذي وعده قائلاً: «ها أنا آتي سريعاً. تمسَّك بما عندك، لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤيا ٣:١١). «ومتى ظهر رئيسُ الرُّعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى» (١بطرس ٥:٤).

• اليَوم في أحد الابن الضال، التَّوبة حاضرة الآن منتظرة فقط أن تقول: «توبني يارب فأتوب». وفي الحال، يعود إليك ثوبك الأبيض، ويوضع على رأسك تاج معموديتك، وتصبح ابناً للنُّور، نور المسيح، ونور الإنجيل. و«سيروا ما دام لكم النُّور، لئلا يدركم الظَّلام. والذي يسير في الظَّلام لا يعلم إلى أين يذهب» (يوحنا ١٢:٣٥). إنه نور الإنجيل، نور الوصيَّة الإلهيَّة «سراجٌ لرجلي كلامك، ونورٌ لسبيلي» (مزمور ١٩:١٠٥). و«الوصيَّة مصباح والشَّريعة نور» (أمثال ٦:٣٣). فليتك أنت يارب تضيء سراجي، لكي بنورك أعاين النُّور.

• التَّوبة هي حياة تبدأ بالميلاد من الله، وتنتهي بالاتحاد به. فالمعموديَّة سرّ الميلاد من الله، والإفخارستيَّا سرّ الاتحاد بالله، ومن ثمَّ فقد لزم أن تكون التَّوبة سرٌّ أيضاً. أي سرُّ الحياة مع الله.

التَّوبة هي سرّ تجديد المعموديَّة، وسر استحقاق الإفخارستيَّا بضمير خطاة تائبين. إذاً فالمعموديَّة والتَّوبة والإفخارستيَّا، هي أسرار لا يمكن فصل أيٍّ منها عن الآخر.

التَّوبة هي تجديد المعموديَّة

• في يوم معموديتي اتجهت إلى الغرب ورفعت يدي اليمنى، وتعهدت أمام الله قائلاً:

أجحدُك أيها الشيطان. وكلَّ أعمالك النَّجسة. وكلَّ جنودك الشِّريرة. وكلَّ شياطينك الرَّديئة. وكلَّ قوَّتك. وكلَّ عبادتك المرذولة. وكلَّ حيلك الرَّديئة والمضلَّة. وكلَّ جيشك. وكلَّ سُلطانك. وكلَّ بقيَّة نفاقك. أجحدُك أجحدُك أجحدُك.

إنَّ الجحد ثلاث مرَّات هو أمرٌ فريدٌ من نوعه، ولا مثيل له إلاَّ في الطَّقس القبطي. ويشهد الغربيُّون أنفسهم أنَّه لم يبق من بين الطُّقوس الشَّرقيَّة كلِّها سوى الطَّقس القبطي الذي حافظ - ولازال يحافظ - على صيغة جحد الشيطان حسب

٣- رؤيا ١٦:١٥

التَّقليد القديم، كما أوردته الوثائق الآبائيَّة القديمة، وكما مارسته كنيسة أورشليم في القرن الرَّابع الميلادي، ولكن في صيغة أكثر شموليَّة، اجتمع فيها جحد الشيطان نفسه، وكلَّ ما يمكن أن يُمتّ بصلة إليه.

هذا هو العهد الذي قطعناه على أنفسنا في يوم معموديتنا، وهو الذي سنسأل عنه في اليَوم الأخير.

يقول العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في عظته الثَّانية عشر على سفر العدد:

[فليتذكَّر كلُّ واحد من المؤمنين تلك الكلمات التي قالها آنذاك، عندما أقبل إلى مياه المعموديَّة. فإنَّه جحد إبليس وكلَّ خدمته pompis eius **وكلَّ أعماله** operibus eius وأنَّه لن يباشر واحدة من عباداته servitiis eius أو شهواته](٤).

ويقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أُسقُف ميلان:

[تذكَّروا ما سُئلتم عنه وبماذا أجبتم. لقد جحدتم الشيطان وأعماله والعالم بكلِّ تنعُّماته وملذَّاته، ولقد حُفظ ما نطقتم به، لا في قبور الأموات بل في سفر الحياة] (في الأسرار، الفَصل ٢).

وهذه الاستقسامات، هي بحسب قول ذهبي الفم [أدعيةٌ رهيبةٌ وعجيبة].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[منذ مجيء المُخلِّص إلينا ... لم تعُد الشياطين بعد قادرة على خداع أحد بالتَّخيُّلات والنبوَّات والسِّحر، وإن تجاسرت وحاولت ذلك، أُخجلت بعلامة الصَّليب] (تجسد الكلمة ٥٥:١).

فعلامة الصَّليب، صارت سرّ النصرة لنا. فهو مطبوع على حياتنا منذ يوم معموديتنا، وعلينا فقط أن نرشمه على جباهنا باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، لكي تصير لنا النصرة بهذه العلاَّمة.

• لقد صام المسيح فغلب الشيطان وحيله، وهو لم يكن محتاجاً أن يصوم، بل لكي يُعلِّمنا كيف يكون طريق النُّصرة.

• وبعد جحد الشيطان، تأتي مرحلة ''الاعتراف بالمسيح'' أو الولاء للمسيح، والتي يقابلها في الطَّقس البيزنطي ''الاتحاد بالمسيح'' ويقابلها في الطَّقس الأنطاكي ''الخضوع للمسيح''. ثمَّ ''الإقرار بالثَّالوث القدُّوس الآب والابن والرُّوح القُدُس''. حيث يتجه المعمد ناحية الشَّرق، ويقول كلمات الاعتراف بالمسيح.

أمَّا كلمات الاعتراف بالمسيح فهي:

''أعترفُ لك أيها المسيح إلهي. وبكلِّ نواميسك المخلِّصة. وكلِّ خدمتك المحيية. وكلِّ أعمالك المعطية الحياة''.

أمَّا الإقرار بالإيمان، فهو بحسب الطَّقس الحالي، أن الكاهن يلقن الموعوظ أو إشبين الطِّفل، قانون الإيمان قائلاً:

''أؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكُل. وابنه الوحيد يسوع المسيح ربِّنا. والرُّوح القُدُس المحيي. وقيامة الجسد. والكنيسة **الواحدة** الوحيدة المقدَّسة **الجامعة** الرَّسوليَّة آمين''.

ويذكر بعض آباء الكنيسة أنَّ الرَّسول بولس قد أشار إلى طقس الجحد والاعتراف بالإيمان في قوله: «امسك بالحياة الأبديَّة التي إليها دُعيت، وقد اعترفتَ الاعتراف الحسن أمام شهود كثيرين» (١تيموثاوس ١٢:٥).

• إنَّ حياة التَّوبة ليست مجرَّد رجوع إرادي إلى الله فحسب، بل **هي أيضاً قبول دعوة من الرَّب لكي يدخل إلى حياتنا**. «ها أنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحدٌ صوتي وفتح البَاب أدخل إليه وأتعشَّى معه وهو معي» (رؤيا ٢٠:٣).

4- *PG* XII, col. 665. Cf. *DACL*, t. 2, p. 264.